المحاضرة الرابعة عشرة فن التوقيعات في العصر العباسي

مدخل

في الأدب العربي أشكال نثرية عديدة، وألوان من الكتابة الأدبية الرفيعة، وقد عنيت بدراسة فائقة من قبل الدارسين كفن الخطابة، والمقامة، والرسالة، والوصية، وفن التوقيعات، والأمثال وغيرها من الفنون الأدبية شفهية كانت أم كتابية.

وفن التوقيعات في الحقيقة قطع أدبية منثورة في أذيال وحواشي الرسائل والدواوين ولكنها أصبحت مجهولة وتغافل عنها الأدباء والكتاب ولم يهتموا لها اهتماماً بالغا يتناسب ومكانتها

التوقيع لغة

يُطلق التوقيع في اللغة على سقوط شيء، يُقال: وقَعَ الشيءُ وُقُوْعًا فهو واقعٌ، والواقعة: القيامة لأنها تقع بالخلق فتغشاهم. والوَقَعةُ: صدمة الحرب. والوقائع: مناقع الماءِ المتفرقة، كأن الماء وقع فيها، ومواقع الغيث: مساقطه، والنسر الواقع، من وقع الطائر، ويراد أنه قد ضم جناحيه فكأنه واقع بالأرض، ومَوقَعَة الطائر: موضعه الذي يقع عليه، وكَوَيت البعير وقاع: دائرة واحدة يكوي بها بعض جلده أين كان، فكأنها وقعت به، ووَقَعَ فلانٌ في فلانٍ وأوْقَعَ به

ويظهر (المعجم الوسيط) هذا المعنى وجاء فيه: ‘‘وقَّع في الكتاب: أجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة وحذف الفضول، والتوقيع ما يعلقه الرئيس على كتاب أو طلب برأيه فيه’’

التوقيع اصطلاحا

قد سمي هذا الفن بالتوقيعات، نسبة إلى ما يوقعه الخليفة أو عماله على الرقاع والرسائل التي ترد حاضرة الخلافة، بطلب أو شكوى أو مظلمة.

وقد عرفه العديد من العلماء قديما وحديثا ، حيث يعرفه البطليوسي قائلا: ‘‘وأما التوقيع، فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر ونهي، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه’’

ويعرفه شوقي ضيف قائلا: ‘‘التوقيعات عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس ووزراءهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم، وحاكاهم خلفاء بني عباس ووزراؤهم في هذا الصنيع، وكانت تشيع في الناس ، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما يحكي من قصة الشاكي وظلامته، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب’’

فن التوقيعات العصر العباسي

اتصلت في هذا العصر الذهبي تلك الدلالة التي شاعت في العصر الأمويى ولكن أضيفت إليها دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية السائدة في العصرالعباسي، حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسيم التي يصدرها السلطان أو الملك لتعيين وال أو أمير أو وزير أو قاض أو معلم. وامتازت مثل هذه التوقيعات بطولها والإسهاب في ذكر الحيثيات والأسباب المسوغة للتعيين حتى تجاوز بعضها أربع صفحات، ولكن التوقيعات بهذا المفهوم لا تعد توقيعات أدبية بل تعدها من باب الكتابة الديوانية والوثائق التاريخية

ثم تحول معنى التوقيعات إلى علامة اسم السلطان خاصة التي تذيل بها الأوامر والمراسيم والصكوك كالإمضاء عندنا. ثم اقتصر معناها فأصبحت تدل على تأشيرة الاسم وهي كتابة بتلك الهيئة الخاصة.

وفي الواقع أن التوقيعات الأدبية لم يكتب لها حظ من الذيوع والانتشار إلا في هذا العصر لأن الكتابة الفنية قد شاعت وانتشرت وتعددت أغراضها وأسلوبها، ففي هذا العصر الذهبي ازدهرت التوقيعات وأنشئ لها ديوان خاص سمي بديوان التوقيعات وعين فيه كبار الكتاب والأدباء البارعون

لقد أسهمت التوقيعات منذ بدايتها الأولى في توجيه السياسة العامة للدولة الإسلامية في عصر صدر الإسلام ودولة بني أمية، ولكن عندما جاء الأمر إلى بني العباس وتستقر أمور الدولة في القرن الثالث الهجري ونزعوا إلى الترف والعيش الرغيد وزاد اختلاطهم بالفرس أخذوا يتأنقون ويطيلون في الكتابة الفنية حتى خرجوا عن أساليب القدماء ومالوا إلى السجع وسائر ألوان البديع والمعاني

يقول جرجي زيدان: ‘‘‘ن لكل عصر إمام في إنشاء المراسلات كعبد الحميد وابن المقفع في العصر العباسي الأول، والجاحظ في العصر الثاني، وابن العميد في العصر الثالث، ويؤكد ما يراه غيره أن الرخاء يدعوا إلى التأنق، فتطرق ذلك إلى إنشائهم، فصاروا يتأنقون فيه كما يتأنقون بلباسهم وطعامهم وأثاثهم، فأطالوا العبارة وتوسعوا في التنميق’’

وقد ارتبط فن التوقيع في العصر العباسي بالإيجاز،وإن أبرز ما يلفت الانتباه في لغة العرب أنها لغة إيجاز، وكيف لا تكون فإن كلمة واحدة فيها أو جملة واحدة تتضمن ألوانا من المعاني المختلفة والمتشبعة التي يتلاعب خيالها في ذهن المرء بسماعه لهذه اللغة، فإذا اقتفينا آثار خطى هذه اللغة المجيدة منذ بدايات عهدها في العصر الجاهلي، نجد العرب حينذاك شديدي الحرص على الإيجاز في لغتهم، وقد كانوا يعمدون إلى حذف الحرف والكلمة والجملة والجمل إذا وجدوا أن المعنى تاما بدونها، ويقتصرون على الإشارة المعبرة الموحية إلى المعنى فضلا عن السرد الممل.

ويتضح مما ذكر أن الإيجاز صفة بارزة في الكلام العربي، وعماد بلاغتهم وركن فصاحتهم لأن اللغة العربية ترتكز على الجوهر والاقتصاد في القول لتوصيل الفهم وتقريبه، فنجدها في ألوان عديدة وفنون متنوعة مثل فن الخطابة والأمثال والحكم وكذلك فن التوقيعات الذي نحن بصدد الآن

والواقع أن هذه الصفات البارزة والمميزات اللامعة التي يتصف بها صاحب التوقيعات يحرصه أن يوقع على الرسائل الواردة والرقاع والقصص المرفوعة بأسلوب موجز بليغ يستوجب توفره مجموعة من الشروط من أهمها الإيجاز: وهو أن تكون ألفاظه قليلة معدودة ذات معان غزيرة، وقد بالغ بعض الخلفاء وكتابهم في اختصار التوقيع حتى إن بعضهم اقتصر في توقيعاته على حرف واحد، أو نقطة .

ويتضح مما سبق أن الإيجاز صفة بارزة في كلام العرب، لأنه يرتكز على الجوهر والاقتصاد في القول لتوصيل الفهم وتقريبه، وهذا الفن يمثل تراثا أدبيا عظيما من حيث أنه يحمل في طياته عددا من أنواع المعاني والبديع ولكن الإيجاز يعد من أخص خصائصه كما أن فقراته وجمله قصيرة موجزة، إذ الجمل القصيرة أكثر خدمة للغرض، وأسهل حفظها وأيسر نقلها عبر الأجيال وذيوعها وشيوعها بين الناس. هذه هي السمة الغالبة في التوقيعات وسيتضح ذلك أكثر لاحقا من خلال النماذج المقترحة مستمدة من العصورة التالية

نماذج من التوقيعات في العصر العباسي

هناك عديد من التوقيعات لخلفاء العباسيين ووزرائهم نجد فيها الإيجاز والبلاغة أو نوعا من كليهما نذكر هنا بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر .

فقد وقَّع أبو العباس السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: "من صبر في الشدة شارك في النعمة. ثم أمر بأرزاقهم"

يظهر من توقيعه أنه أراد أن الصبر في الشدائد والآلام يعطي الفرح والسرورفي الرخاء والعيش وكذلك نرى هنا الشدة التي تصارع النعمة والصبر على المعاناة والتحلي بالعزيمة والجلد يصطدم مع الرخاء ليتولد عنه قيام شخصية صلبة متينة

قد برز كثير من توقيعات بني العباس يطبع عليها سمة الإيجاز والبيان والبديع، فقد وقع أبو جعفر المنصور إلى عامل مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: "طهِّر عسكرك من الفساد، يُعطِك النيلُ القِيادَ"، فيظهر من توقيعه أنه أمر عامله على مصر أن يزيل الفسق والفجور من جنوده، لأن المعاصي والذنوب يمنع الرحمة والفضل، فبدا أنه وجه عامله إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهكذا وقَّع هارون الرشيد في حادثة البرامكة: "أنبتَتْه الطاعة، وحصدَتْه المعصية"

و يبرز من توقيعه أنه شبه البرامكة بالبذور التي تنمو وترعرع، ثم شبههم وقد نكبوا بسبب تمردهم وخيانتهم بالزروع التي تحصد، ثم حذف المشبه به في كل من الصورتين، وأبقى في الكلام ما يدل عليه وهو"أنبتتْ وحصدتْ" وهما استعارتان مكنيتان، وسر جمالهما أنهما يظهران أثر الطاعة وأثر المعصية في صورة مادية ملموسة، هي صورة البذور وهي تنمو، والزروع وهي تحصد.

وكذا وقع هارون الرشيد إلى صاحب السند إذ ظهرت العصبية: "كل من دعا إلى الجاهلية تعجَّل إلى المَنية"

ووقَّع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: ‘‘يا عمرو، عمِّر نعمتك بالعدل، فإن الجور يهدمها’’

ووقع إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: "ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة وغريمك خاوٍ وجارك طاوٍ".و يظهر من جميع هذه التوقيعات للمأمون أنها آية في الإيجاز والبلاغة".

ووقَّع زياد بن أبيه في قصة قوم رفعوا على عامل رفيعة: ‘‘من أماله الباطل قَوَّمَه الحق’’

ووقَّع جعفر بن يحيى في قصة محبوس:"العدل يُوبقه، والتوبة تطْلِقه"

ووقَّع أيضاً في رجل شكا بعض عماله: ‘‘قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت’’ .

ووقَّع الفضل بن سهل السرخسي إلى حاجبه: ‘‘تمهَّل وتسهَّل’’

و إلى صاحب الشرطة: ‘‘تَرَفَّقْ تُوَفَّقْ’’

ووقَّع أيضاً في أمريءٍ قاتل شهد عليه العدول فشفع فيه: ‘‘كتاب الله أحق أن يُتْبع’’.

وانطلاقا من هذه الشواهد يظهر أن التوقيع فن أدبي راق وبليغ، وأسلوبه أسلوب سهل ممتنع .

و كثيرا ما نجد في التوقيعات أنواعا من البديع كالسجع والطباق والمقابلة والجناس. وأما فيما يخص الإيجاز فإنه يتنوع بين إيجاز القصر وإيجاز الحذف، ولعل الغالب في التوقيعات هو إيجاز القصر الذي يطلق عليه اسم إيجاز البلاغة، فإيجاز القصر يتردد كثيرا في هذا الفن، ورغم اقتصار العبارة فيه على ألفاظ قليلة إلا أنه تحمل معاني كثيرة. وعليه فإن علاقة الإيجاز بفن التوقيع علاقة وطيدة، فهذا الفن في معظم مضامينه، تتمثل في الاستعطاف وشكوى الحال والاعتذار والعتاب والشكر على النعم. وهذه المواضيع ما يستحسن فيه الإيجاز لتكون أكثر تعبيرا وتأثيرا في ذهن السامع.

فالتوقيعات الأدبية - كما عرفنا- ربما تكون مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية وهما مصدر من مصادر الإيجاز والبلاغة. وكان التوقيع في حد ذاته فنا أدبيا يتضمن الرأي أو ما يجب إجراؤه تجاه الولاة أو الرعايا ومصالحهم وأمورهم.

للاستزادة أكثر ينظر

ناصر الدخيل: فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي ، مقال

بن منظور: لسان العرب.

المعجم الوسيط في اللغة: مجمع اللغة العربية القاهرة

الجاحظ: البيان و التبين .

ابن خلدون: المقدمة .

أحمد أمين: ضحي الإسلام.

محمد رجب النجار: النثر العربي القديم.

جرجي زيدان: تاريخ اللغة العربية

محمد أحمد جاد المولى، محمد إبراهيم أبو الفضل، علي محمد البجاوي: قصص العرب

رفيق حسن الحليمي: التوقيعات. مجلة الوعي الإسلامي العدد 532 ذو الحجة 1430هـ ديسمبر 2009م

الميداني: مجمع الأمثال. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الحلبي – القاهرة 1957م (10)